أثر المرأة

فى توجيه الرجل

بقلم الآنسة سهير القلماوى

طلب الى رئيس تحرير هذه المجلة أن أحدث قراءها فى هذا الموضوع الذى اختاره هو فهو اذن يتحمل تبعة هذا العنوان. ولقد احترت أول الأمر فيما أقول فيه وأنا لم آلف أن أتحدث أو أشارك فى حديث حول المفاضلة بين الجنسين. وكنت دائما لا أستسيغ هذا النقاش ولا أجده أكثر من كلام لا طائل تحته . ولكن يخيل الى أن رئيس التحرير لا يريد بهذا الموضوع شيئا ألفنا أن نسمعه مما يثار حول الجنسين من مفاضلات ، وانما هو موضوع يؤيد ظواهر ثابتة فى الحياة لا يجد أى من الجنسين غضاضة فى الاعتراف بها . وهو لذلك يثير فى نفسى مسألة هامة لا يكفى فيها التفكير وإنما هى تتطلب العمل السريع الحاسم .

المرأة فى الحياة تمثل المعنى والعاطفة، هى البيت الذى تسكن اليه الأسرة، هى الأم وهى الزوج، هى المحيط الذى يحس الرجل فيه أنه انسان يحيا لا إنسان يعمل ، هى البوتقة التى تصهر فيها أفراد الجيل الجديد. لذلك كان لها الأثر الذى لا حد له فى تكوين الأمم .

هذه حقائق من العبث مجادلتها أو الاستمرار فى وصفها ، والأفضل من هذا أن نسائل أنفسنا: الى أى حد تقوم المصرية بهذا الدور، وما آثارها، وما هى السبل التى تمكنها من أن تقوم به على الوجه الأكمل ؟

ليس هناك شك أننا اذا تكلمنا عن المصرية كان كلامنا محتاجا الى تحديد . فكلمة المصرية علام تدل ؟ هى تنصب على الفلاحة التى تعيش لاصقة بالارض وتسير على سنن الطبيعة التى سار عليها الانسان فى فجر التاريخ مع شىء طفيف من التغيير ، وهى تنصب على المتعلمة المدنية التى بلغت من الثقافة والتهذيب ما بلغته أختها فى أرقى الامم الغربية، وهى بعد تنصب على كل من تقع بين هذين الطرفين من حيث التعليم والتهذيب مع تباين هذه الدرجات وما يجره تباينها من خير أو شر .

نلاحظ اذن لأول وهلة أن البون شاسع وأن الاختلافات كبيرة جدا بين مدلولات هذه الكلمة . وهذا من الناحية القومية شيء هام انتج آثارا هامة نشق بها أى شقاء .

هذا التباين أوجد عندنا أنواعا متعددة من المصريات ليس بينهن صفة مشتركة تدل على أنهن ينمن من وطن واحد و يردن مثلا أعلى واحدا . ليس عندنا بعبارة أخرى نموذج معين نستدل به على مصرية المصرية . فهذه التى أسرفت فى تقليد المدنية الغربية عن سوء فهم وسوء تمثيل لما تعلمت ، وهذه التى لا تفترق عن الحيوان الا فى القليل من عواطفها ، هذه وتلك مدلول لكلمة واحدة ، وهذه وتلك لا تلتقيان عند شيء بل لا تكادان تتفاهمان .

ولما كان البيت من صنع المرأة ولما كانت المرأة لا تستطيع أن تخلق من بيتها الا ما يلائمها فقد خرجت بيوتنا المصرية معرضا لشتى أنواع البيوت ليس بينها شيء مشترك ، وهى لا تدل على شيء يمكن أن نسميه الشخصية المصرية ، ولذلك أيضا فقدنا وحدة الأثر المنزلى فى تكوين المصريين فاصبحت هوة الاختلاف عميقة بين أفراد الأمه الواحدة ، لان الفرد يتكون فى البيت قبل أن يتكون فى أى مكان آخر .

أين يلتقى الطفل الذى ربى فى بيت أسرفت ربته فى الأخذ بأسباب المدنية ، والطفل الذى ربى فى الريف فى بيت أسرفت ربته فى الحيوانية والجهل ، وهذا وذاك سيلتقيان وسيوجدان جنبا الى جنب فى أعمال الدولة وميكون بينهما ما نجد الآن مما هو من أخص صفات أعمال أمتنا وهو التعطيل والتأجيل بسبب تباين الآراء واتساع هوة الخلاف الذى لا يمكن أن تلتقى بسببه وجهات النظر ، والذى ينهى الأمر حتما الى نقاش يخرج منه باليأس العافية وتأجيل العمل أو يخرج منه بتقرير شيء اليوم يمحى هو نفسه فى الغد .

و ياليت الخطر على فداحته اقتصر على ما تخرجه البيوت المصرية ، ولكن يجب أن نضيف الى هذا أن المصرى يخرج من بيته ولا شخصية له ، ويتعلم فى مدارس يقوم بتنفيذ برامجها التى تتجدد وتتغير ، مربون منبا ينون فى شخصياتهم إن كانت لهم شخصيات ، ثم يشاء سوء الطالع أن نكون مفتقرين الى ما عند غيرنا من الأمم من أسباب الرقى ، فنرسل هذا المصرى ليقتبس من هذه الحضارات ما يفيد و يعين ، فينزل فى فرنسا أو انجلترا فاذا افراد اقوياء لست أبالغ فى قول كلهم وإنما أنصف فاقول اكثرهم ، فتؤثر فيه آثارا مختلفة ، ويحمل هذه الآثار وهو غير مستعد لها ولا قادر على غربلتها وإخراجها فاذا هو على حد تشبيه القرآن الكريم « كالحمار يحمل أسفارا » و يعود الى وطنه مسخا انجليزيا أو فرنسيا قد بهر وقلد ، ولم يزد على أنه بهر وقلد القشور الشاذة . ثم يسخط على بيته ووطنه وليس عنده من القوة ما يساعده على تغيير ما يسخط عليه ويتزوج

مصرية أو أجنبية فتعود المأساة تتكرر من جديد فى بيت جديد أن اسرفنا فى حسن الظن فهو بيت مصرى لا مصرية له . وقد يكون هذا المصرى ممن تخصصوا فى التعليم أو التربية فلا يحصر ضرره فى الديوان والبيت وإنما يمتد إلى الآلاف من التلاميذ أيضا .

هذا هو الداء الخطير ، وقد برعنا فى وصف الأدواء عادة فما هو العلاج وليس أمره سهل الوصف. الأمر فى ظاهره كالحلقة المفرغة : هذا يعتمد على ذاك وذاك يعتمد على هذا ، الجيل المستقبل يريد جيلا حاضرا سليما من هذا الداء ليكونه ، والجيل الحاضر كان يريد جيلا ماضيا سليما من الداء ليكونه . ولو صح هذا المنطق لما كان هناك اصلاح فى التاريخ وإنما الذى لا شك فيه أن قوما يحسون الداء وأن قوما سلموا من هذا الداء وأن قوما ممن أحسوا وسلموا ستتاح لهم فرصة العمل إن سعوا اليها وهم لاشك واصلون ، وهؤلاء وحدهم هم القادرون على العمل بشرط أن يؤمنوا أن أشرف ما يضيع الانسان فيه حياته هو أن يشقى ليسعد من بعده . ولا شك أن عقبة هامة ستقوم فى وجه هؤلاء هى آثار هذا الداء والمصابون به ممن سيضطرون الى العمل معهم ولكن تلك العقبة تتغلب عليها ما دمنا مخلصين وما دمنا ولاشك نتفق على أسس بعينها ، فلنبدأ بهذه الأسس مبسطة من الآن ولا نهجم على الكمال فنعجز ونقعد .

المصرية لها تاريخ طويل مجيد لاشك أنها لا تعرفه ولا شك أنها يجب أن تعرفه. والمصرية لها بلاد تنفرد بطبيعتها وجغرافيتها ، وهى لا تعرف عن هذه البلاد شيئا ، وهى مطالبة ولا شك بأن تعرف عنها كل شىء . والمصرية لها لغة وأدب وفن تجهلها جهلا يكاد تاما وهى مطالبة بأن تعرف عنها مقدارا لا يمكن أن تستغنى عنه .

هذه أشياء يجب أن تبسط لتتعلمها المصرية قبل أن تعرف حرفا واحدا عن غير مصر. ولست أدرى لماذا لا يضير الانجليزية العادية أن تجهل موقع مصر من العالم و يضير المصرية ألا تعرف أن لندن عاصمة بريطانيا . ولماذا لا يضير الفرنسية العادية ألا تعرف شيئا حتى عن وجود لغة عربية يتكلمها أهل مصر و يضير المصرية ألا تفهم الفرنسية وهكذا .

والمصرية قبل كل شىء وفوق كل شىء لها دين ينظم عبادتها و ينظم علاقتها بالناس الى حد بعيد وهى تجهل ولا شك هذا الدين وهى مطالبة بأن تعرف دقائقه وأن تعمل بتعاليمه منذ صباها. والمصرية لها تقاليد ومقاييس تقيس بها قيم الناس والأشياء وهذه ولاشك تجهلها أو تتجاهلها ، وهى ولا شك قوام شخصيتها فى المحافظة عليها وجودها ، وفى الاستهانة بها تخبطها بين الوجود والعدم .

والمصرية لها طقس ومناخ، ولها تكوين جثمانى خاص، وهذه تتطلب معلومات معينة للعناية بأهل بيتها العناية الأولية التى لا بد منها فى الصحة والمرض ، وهـذه يمكن أن تبسط وأن تتعلم بمنتهى اليسر فى وقت سريع .

من هـذه المواد الأساسية التى لا يمكن أن يكون فيها خلاف أو جدال يمكن أن يوضع برنامج متحد متماسك بسيط قوى فى بساطته يمكن أن ينفذ فى عامين مثلا . ويفرض هـذا البرنامج كالخدمة العسكرية الاجبارية لا على المصريين فحسب وإنمـا على المصريات من أى سن ومن أية طبقة حتى نستطيع أن نكون أكبر عدد من البيوت المصرية فى أسرع وقت . يفرض فى المدرسة على المتعلمة، ويفرض أحاديث يتحدث بها الى غير المتعلمة حتى تنال حقها من التعليم .

وبهذا ، وبهـذا وحده يمكن أن نضمن سريعا بيوتا لست أقول مثالية وإنمـا أقول مصرية على الأقل تباشر فيها المصرية أثرها القوى فى الرجل والأبناء . وبهذا وبهـذا وحده يمكن إيجاد نقط أساسية يلتقى عندها المصريون جميعا فتخف وطأة النقاش بين المصريين وتضيق دائرة الخلاف، فلا تتعطل دفة العمل ولا تتعثر عند أولى الخطوات فى بلد هى أحوج ما تكون الى العمل السريع .

سهير القلماوى

آفة النصح أن يكون جدالا ، وأذاه أن يكون جهارا .

حب القلوب يزول ، ويبقى حب العقول .

تحسن المرأة نصف عليمة ، ويقبح الرجل نصف جاهل .

زواج العشق ورد ساعة ، وزواج المـال ورد صناعة ، والبركة فى زواج موفق يكون لعمارة البلد وفى سبيل الولد .

شوقى